

جهود شوقي ضيف في الدراسات اللغوية

د. محمود فهمى حجازى

يرجع اهتمام الأستاذ الدكتور شوقي ضيف بعلوم اللغة العربية إلى مرحلة مبكرة من حياته العلمية، كان تحقيقه لكتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي بداية عطائه في الدراسات اللغوية العربية (١٩٤٧)، واستمر عمله الجاد تأليفاً وإشراقاً على مدى ثلاثين عاماً، فظهر كتابه المدارس النحوية (١٩٦٨)، ثم كانت عضويته في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٧٧) بداية جديدة لأعمال الفكر في قضايا اللغة العربية وتيسير النحو، ولكل هذه الجهود مكانتها في تاريخ الدراسات اللغوية في جامعاتنا العربية.

إن الدكتور شوقي ضيف يمثل الجيل الأول من الأساتذة الجامعيين، الذين تلقوا تكوينهم حتى الدكتوراه بالجامعة التي نعرفها اليوم باسم جامعة القاهرة، عرف عدداً من المستشرقين، وعرف جهودهم العلمية في الدراسات العربية والسامية، وأفاد من بحوثهم اللغوية في التاريخ المبكر للعربية في ضوء اللغات السامية، ولكن اهتمامه الأول لا يدخل في إطار اهتمامات المستشرقين بالبحث اللغوي المقارن، لقد انطلق من التراث العربي، ومن النظر النقدي فيه في محاولة جادة للتفكير في التراث، وفي نقده، وفي تقديم اللغة، والأدب العربيين إلى جمهور الدارسين، وبذلك كانت اهتماماته اللغوية في اتجاهين، أحدهما: تطبيقي وهو يتصل بتيسير النحو وتعليم العربية، والثاني: تاريخي بحثي يتناول تراث النحو العربي.

أولاً: قضية تيسير النحو وتعليم العربية:

يعد تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي (٥١٣-٥٩٢ هـ)، ومدخل الدكتور شوقي ضيف لهذا التحقيق عمليين لها مكانتها في إطار قضية تيسير النحو العربي. والواقع أن اختياره لهذا الكتاب، ومقدمته لهذا الكتاب يعكسان أمرين جديرين بالتنويه.

أولهما: أن تحقيق كتاب في النحو العربي لم يكن أمراً مألوفاً في البيئة الجامعية، ولا في

البيئات الثقافية الأخرى في مصر، لقد بدأت طباعة كتب التراث النحوى العربى في أوروبا مع بداية عصر الطباعة، فطبع متن الكافية لابن الحاجب في روما سنة ١٥٩٢، ثم توالى طبعات كتب التراث العربى النحوى في أوروبا، ومنها كتاب سيبويه بتحقيق المستشرق الفرنسى درينبور سنة ١٨٨١، وشرح ابن يعيش على المفصل بتحقيق يان سنة ١٨٨٢، وكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنبارى بتحقيق فايل ١٩١٣، وكاد تيار تحقيق كتب التراث النحوى العربى في أوروبا يتوقف بعد ذلك. أما في العالم الإسلامى فقد ساد تيار إعادة طبع الكتب النحوية المحققة، فطبع ل المؤلفات السابقة طبعة ثانية، وكان لمطبعة بولاق، ولطابع القاهرة بصفة عامة دور كبير في هذا الصدد، وإلى جانب هذا طبعت عدة كتب كانت متداولة عند طلاب الأزهر والمؤسسات الأخرى المعنية بالدراسات العربية، أكثرها شروح على ألفية ابن مالك، وهذه الطبوعات التجارية تنسم في أحسن الأحوال بتقديم نص يصلح للطلاب، ولكنها في الأغلب الأعم لم تكن طبوعات محققة، وفي هذا الإطار يعد تحقيق الأستاذ الدكتور شوقى ضيف لكتاب ابن مضاء من بواكير الجهود الجامعية المصرية في تحقيق كتب التراث النحوى العربى.

وثانيهما: أن تقديم فكر ابن مضاء ارتبط في البيئات الثقافية في مصر بقضية تيسير النحو لأغراض تعليمية، وهى قضية بدأت في العصر الحديث مع رفاة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٢م) بكتابه «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية»، وهو كتاب توسل فيه صاحبه بالجدول لعرض القواعد، ثم تابعت محاولات التلخيص والتأليف المدرسى، وأشهرها جهود حفى ناصف وزملائه في كتاب «قواعد اللغة العربية» بمراحله المختلفة ثم جهود على الجارم، ومصطفى أمين في كتابها النحو الواضح بأجزائه المتكاملة، وقد بدأت القضية تتخذ أبعادا جديدة عندما شغل إبراهيم مصطفى في محاضراته الجامعية بالنظر في موضوع الإعراب، فكان كتابه «إحياء النحو» بداية نظر جديد، كانت قضية العامل المحور الذى رأى فيه إبراهيم مصطفى جوهر المشكلة، فرأى إلغاء نظرية العامل، وفي نفس الفترة الزمنية نجد وزارة المعارف تحاول الإفادة من المؤسسات الجديدة المعنية باللغة العربية، وفي مقدمتها مجمع اللغة العربية بالقاهرة. لقد طلبت وزارة المعارف في عهد وزيرها بهى الدين بركات باشا (١٩٣٨) تيسير النحو، فقامت لجنة برئاسة الدكتور طه حسين بإعداد مقترحاتها في هذا الصدد، وقدمتها إلى الجهات المعنية، ثم ناقشها مجمع اللغة العربية في القاهرة (١٩٤٥)، وعرضت على المؤتمر الثقافى الأول الذى اجتمع في لبنان (١٩٤٧). وفي هذا الإطار وجد تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء، ومقدمة الدكتور شوقى ضيف له البيئة الثقافية الطامحة نحو التجديد، ولكنها كانت تود أن تجد لهذا التجديد أصوله التراثية أيضا. إن نشر هذا الكتاب أعاد فكرة إلغاء العامل إلى ابن مضاء، وبقي في كتاب إبراهيم مصطفى الكثير مما يعد اجتهادا منه، وإضافة له.

لقد أخرج الدكتور شوقي ضيف كتاب «الرد على النحاة» محققاً في نحو ثمانين صفحة مع دراسة في نحو ثمانين صفحة أيضاً. وانتهى في آخر هذه الدراسة إلى رأى قرره بقوله: «إننا حين نطبق على أبواب النحو مادعا إليه ابن مضاء من منع التأويل والتقدير، في الصيغ والعبارات، كما نطبق على هذه الأبواب مادعا إليه من إلغاء نظرية العامل، نستطيع أن نصنف النحو تصنيفاً جديداً يحقق ما نبتغيه من تيسير قواعده تيسيراً محققاً، وهو تيسير لا يقوم على ادعاء النظريات، وإنما يقوم على مواجهة الحقائق النحوية، وبحثها بطريقة منظمة لا تحمل ظمناً لأحد، وإنما تحمل التيسير من حيث هو حاجة يريدها الناس إلى النحو العربي في العصر الحديث».

وهنا نجد شوقي ضيف يسهم برأيه في التجديد مع توثيق هذا الرأى بالأصول التراثية، فيقدم لتحقيقه لكتاب ابن مضاء مقدمة مفصلة لم يقتصر فيها على التعريف بالمؤلف وبفكره النحوى، بل نظر - أيضاً - في الانطلاق من هذا كله إلى بيان حاجة النحو إلى تصنيف جديد. ويقوم هذا التصنيف على مجموعة من الأسس العامة:

- ١ - الانصراف عن نظرية العامل.
 - ٢ - منع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات.
 - ٣ - عدم إعراب الكلمة مادام إعرابها لا يفيد شيئاً في صحة النطق.
- وهذه الأسس تتكامل مع الأساس الرابع الذى أضافه بعد ذلك.
- ٤ - (استنباط) ضوابط سديدة أو دقيقة للأبواب بحيث تبين الناشئة أوضاعها ووظائفها في التعبير تبييناً تاماً.

وظلت هذه الأسس مجالاً للحوار والمناقشة، ومجالاً للتفكير والنقد في محاولات تيسير النحو منذ تلك الفترة.

لقد استمر العطاء العلمى للدكتور شوقي ضيف متصلاً في مجال النحو، وفي غيره من المجالات الأدبية واللغوية، وعندما عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الرياض (١٩٧٧)، ندوة متخصصة لبحث وسائل تطوير إعداد معلمى اللغة العربية في الوطن العربى، كان الدكتور شوقي ضيف أحد أعلام الباحثين في هذه الندوة، فقدم بحثاً موضوعه: «الدراسات اللغوية والنحوية والأدبية» في إعداد معلمى العربية، وأعد في نفس الفترة بحثه في «تيسير النحو» وقدمه في دورة مجمع اللغة العربية في القاهرة (١٩٧٧)، وكلا البحثين عرض جديد لفكر جاد في قضايا تعليم العربية، وإعداد معلميه.

إن الفرق الأساسي بين فكره أثناء تحقيق الرد على النحاة والتقديم له - وهي فترة سادتها عند دعاة التجديد فكرة إلغاء العامل، وفكره في السنوات الماضية يكمن في نظريته إلى اللغة، حيث لم تعد القضية تقتصر على كيفية الإعراب ووسائل التعبير عنه، ولكنها قضية اللغة في أبعادها الصوتية والصرفية والنحوية، الجديد في بحثه الخاص بإعداد معلمى العربية تأكيد واع لأهمية الجانب الصوتى في إعداد المعلم وفى ممارسة اللغة. لا يقتصر الأمر على نطق الأصوات المفردة، بل يتناول - أيضاً - ظواهرها السياقية، ومنها قضية الوصل والقطع، وفى هذا البحث تأكيد لأهمية الجداول الصرفية، وما ينبغى لمعلم العربية أن يتقنه اعتماداً عليها، ولعل من أهم ما ورد فى هذا البحث ذلك النظر الجديد فى العلاقة بين النظرية والتطبيق فى تعليم النحو، وهنا نجده يطالب بأن يكون تدريس النحو قائماً - فى المقام الأول - على تلك التدريبات الهادفة إلى تكوين سليقة لغوية عربية، فإذا كان للنحو ثلاث ساعات أسبوعياً جعلت محاضرة للنحو النظرى، ومحاضرتان للتطبيقات النحوية، وهكذا نجد فى هذا البحث تعاملًا مع اللغة فى أبعادها الحية المتكاملة وتوجيهها نحو الممارسة اللغوية، فى حين أن نجد فى بحثه فى «تيسير النحو» تصورًا فكريًا للنحو الميسر المقترح.

ثانياً: التأريخ لمدارس النحو العربى:

للدكتور شوقى ضيف دور كبير فى توجيه الدراسات الجامعية، نحو الاهتمام بالتراث النحوى العربى. لقد أثار تحقيقه لكتاب «الرد على النحاة» (١٩٤٧) اهتماماً بالتراث النحوى، فبدأت البحوث الجامعية فيه. تنضح هذه الحقيقة من النظر فى اتجاهات الرسائل الجامعية قبل هذا التاريخ وبعده، فقد أجازت كلية الآداب بجامعة القاهرة (حتى ١٩٤٧) اثنتى عشرة رسالة للدكتوراه فى الأدب العربى، ولم تمنح درجة دكتوراه واحدة فى النحو العربى، أما رسائل الماجستير فضمنت ٣٤ رسالة فى الأدب العربى فى مقابل ثلاث رسائل جامعية فى الدراسات اللغوية العربية، واحدة منها فقط فى التراث النحوى العربى، وهى رسالة محمد على القصاص^(١) وموضوعها: «ابن جنى وفلسفته اللغوية» (١٩٣٩)، لقد بدأ اهتمام جديد ببحث التراث النحوى، وأجيزت بجامعة القاهرة بعد عام ١٩٥١ سلسلة من الرسائل الجامعية تناولت: القرآن والنحو، والخليل بن أحمد، وسيبويه، وثعلب ومدرسة الكوفة، والزجاجى، والرمانى، والفارسى، وأبا حيان، وكأن هذا الاهتمام الجامعى المدير بالبحث فى التراث النحوى العربى قد بدأ بعد صدور كتاب الرد على النحاة. وكثير من هذه الرسائل كان بإشراف الدكتور شوقى ضيف بكلية الآداب بجامعة القاهرة.

(١) هو أستاذنا الدكتور محمد القصاص أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين

وفي هذه الفترة (١٩٤٧ - ١٩٦٥) كان اهتمام الدكتور شوقي ضيف بالتراث النحوى العربى سمة مميزة له، ولمجموعة من الباحثين بإشرافه.

أراد التأريخ للنحاة والتعريف بجهودهم، وباتجاهاتهم فألف كتابه «المدارس النحوية»، فأخذ يؤلف هذا الكتاب أثناء عمله أستاذاً معاراً إلى الجامعة الأردنية في العام الجامعى ١٩٦٥-١٩٦٦ وانتهى منه في يناير ١٩٦٨، ومكان هذا الكتاب في موضوعه جدير بالبيان، هو أول كتاب حديث بالعربية في المدارس النحوية لم يسبق في موضوعه إلا بكتاب المستشرق الألمانى فايل عن المدارس النحوية عند العرب، وهذا الكتاب نشره فايل (١٩١٣) مقدمة لتحقيقه لكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنبارى، إن الفرق واضح بين الكتائين، أقام فايل كتابه على فكرتين متقابلتين هما منهج القياس على المطرد عند البصريين، ومنهج القياس على الشاذ عند الكوفيين، وعرض لتطور المدرستين، وأوضح أهمية ابن الأنبارى ومكانة كتابه الإنصاف. وظل كتاب فايل بالألمانية العرض الوحيد لهذا الموضوع، إلى أن ظهر كتاب شوقي ضيف بمادة عربية أوسع، وعرض شامل، ورؤية مستوعبة تضم الجزئيات النحوية المتفرقة، فإذا بها تنتظم في اتجاهات واضحة. وإذا كان شوقي ضيف قد عرف جهد فايل فإنه قد استطاع تجاوزه ونقده في كثير مما ورد فيه، ولا سيما فيما يتعلق بمدرسة الكوفة وعلاقتها بالنحاة المبكرين.

لقد عرض شوقي ضيف لتأريخ المدارس النحوية، منذ نشأة التفكير في النحو العربى، وارتبطت عنده هذه النشأة بالعمل الدينى، ويتمثل في الحرص الشديد على أداء نصوص القرآن الكريم أداءً فصيحاً سليماً، وبالعامل اللغوى القومى في مواجهة الاختلاط بالأعاجم، وبرغبة المستعربين الجدد في تعلم العربية، وبهذا وضع شوقي ضيف قضيته نشأة النحو العربى في إطارها اللغوى الاجتماعى الصحيح، وتجاوز بهذا آراء سائدة تجعل وضع النحو من عمل أبى الأسود بأمر من على بن أبى طالب، إن شوقي ضيف يثبت لأبى الأسود جهوده في إضافة النقط الدالة على حركات الإعراب، وهذا عمل جليل في ضبط النصوص، ولكن ثمة فرقاً بين ضبط النص وتحليل بنيته اللغوية.

إن محاولته التأريخ للمدارس النحوية العربية، قامت على أساس الآراء الواردة في كتب النحو لا على أساس الأقاصيص التى تضمها كتب الطبقات والتراجم. وبذلك اتخذ النحاة المبكرون الذين وردت آراؤهم في كتاب سيبويه أماكنهم الصحيحة، وفي مقدمتهم ابن أبى اسحق الحضرمى (المتوفى ١١٧هـ)، وعيسى بن عمر الثقفى (المتوفى ١٤٩هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (المتوفى ١٥٤هـ) ويونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢هـ)، وإعادة الاعتبار إلى هؤلاء جميعاً جهد علمى مشكور قام على جمع آرائهم المتناثرة، وبحثها وإيجاد السمات المنهجية فيها.

وهذا أيضًا شأن الخليل ودوره في إقامة صرح النحو والتصريف، فإذا كنا لا نعرف اليوم كتابًا نحويًا من تأليف الخليل فإن آراءه التي وصلت إلينا عند سيبويه أثبت بها شوقي ضيف مكانة الخليل في البحث الصرفي والنحوي، وفي هذا الصدد كان ثمة اهتمام بالمصطلحات التي دارت في تلك المحاورات، بين الخليل وسيبويه وفيها تكونت المصطلحات النحوية أو كادت. وأثبتت متابعة آراء الخليل أصالته في البحث الصرفي، ففكرة الميزان الصرفي وما لها من أساس منهجي وتطبيقات صرفية، ومعجمية ترجع إلى الخليل، ولولا هذا الميزان لما قام البحث في بنية الكلمة العربية واللغات السامية، إن نظرية العامل النحوي - على الرغم من كل ما أثير في نقدها تعد من أهم محاور التحليل النحوي عند الخليل، أما أصول السماع والتعليل والقياس عند الخليل، فقد خصها شوقي ضيف بعرض تحليلي واضح.

وما نكاد نصل إلى الفصل الخاص بسيبويه حتى نجد بحثًا في الكتاب وفي المنهج النحوي. في هذا الفصل نجد فكرة العامل النحوي، التي وضع الخليل أصولها تصبح عند سيبويه أساسًا عامًا في تحليل الجملة العربية. وتناول شوقي ضيف - أيضًا - قضايا السماع والتعليل والقياس عند سيبويه. ولعل من أهم ما تضمنه الفصل الخاص بالأخفش وتلاميذه أنه هو الذي فتح للكوفيين أبواب الخلاف على سيبويه وأستاذه الخليل حتى أصبح بحق الأستاذ الحقيقي للنحاة الكوفة، وقد أقام شوقي ضيف هذا الرأي بعد أن جمع آراء الأخفش من مئات المواضع في كتب النحو في وقت كان فيه كتاب «إعراب القرآن» للأخفش في حكم المفقود^(٢).

لقد اعتمد شوقي ضيف في إقامة الكثير من فصول كتابه على آراء النحاة المتاحة في الكتب النحوية الموسوعية، صنع هذا في بحثه لأعلام أشارت بهم كتب الطبقات وأمهات كتب النحو لم تصل إلينا كتبهم على نحو مباشر، وتصدق هذه الملاحظة على قطرب وأبي عمرو الجرمي، وهشام بن محمد الضرير، وتصدق إلى حد كبير على الكسائي فهؤلاء جميعًا لم تصل إلينا كتبهم النحوية، لقد أعد شوقي ضيف كتابه في المدارس النحوية في وقت عزت فيه المصادر المباشرة لآراء الكثير من النحاة، فكان عليه أن يعود بين الفينة والفينة إلى مخطوط المقتضب للمبرد أو إلى مخطوط شرح السيرافي على سيبويه، واستطاع بهذا كله أن يعرض لمدارس النحو العربي وأن يرسم لها صورة واضحة الملامح.

لقد خصص شوقي ضيف القسم الثاني من كتابه للمدارس الكوفية، وكما ابتعد عن الاعتماد على الروايات المتداولة في كتب الطبقات عن موضوع نشأة النحو العربي، واعتمد على كتب النحو نفسها، فإنه ابتعد أيضًا عن القول بأن أبا جعفر الرؤاسي ومعاذ الفرأ، قد

(٢) حققه تلميذنا النابه الدكتور فارس الحمد في رسالة جامعية بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٨.

أسسا مدرسة الكوفة، ولهذا فإن النحو الكوفي بالمعنى الدقيق للكلمة بدأ تاريخه من الكسائي والفراء، لقد اهتم شوقي ضيف في دراسته للمدرسة الكوفية ببيان مصطلحاتها النحوية، واستخرج طائفة من هذه المصطلحات، مثل: مصطلح الخلاف الذى جعلوه عاملاً معنوياً لنصب الظرف إذا وقع خيراً، ومصطلح الظرف (= المفعول معه)، والتقريب (= اسم الإشارة هذا)، والفعل الدائم (= اسم الفاعل)، والمكنى والكناية (= الضمير)، والترجمة (البذل)، والتفسير (= التمييز). وأثبت بعد هذا كله أهم سمتين اتسمت بهما المدرسة الكوفية، وهما الاتساع فى الرواية والاتساع فى القياس، وهذا الاتساع فى وقت كان العمل النحوى فيه هادفاً إلى المعيارية، والتقنين جعل الدكتور شوقي ضيف يصف الكوفيين، بأنه يدل على نقص فهمهم لما ينبغى للقواعد العلمية من سلامة واطراد.

عرض كتاب المدارس النحوية أيضاً لاتجاهات النحاة العرب بعد هذه الفترة، وخصص الباب الثالث كله لمدارس مختلفة، وهى المدرسة البغدادية والمدرسة الأندلسية والمدرسة المصرية. وهو فى هذا كله يعتمد على ما تناثر لأعلام هذه المدارس من آراء نحوية فى كتب النحو الجامعية. كان يضم هذه الجزئيات، فإذا هى تنتظم على يديه فى اتجاهات واضحة ومتميزة، وهكذا قدم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف عرضاً علمياً لمدارس النحو العربى بين دفتى كتاب واحد. إن الدكتور شوقي ضيف أحد أعلام الدراسة الأدبية، وله أيضاً تلك الإسهامات الواضحة فى الدراسات اللغوية، لا تقتصر مكانته على تلك البحوث التى كان لها أثرها البعيد فى توجيه الباحثين إلى التراث النحوى العربى تحقيقاً ونقداً، فهو - أولاً وقبل كل شئ - أستاذ جيل - تدين له الجامعات العربية بنخبة من أساتذتها تتلمذوا عليه ونهلوا من علمه وخلقه.

أ. د. محمود فهمى حجازى

أستاذ اللغة والنحو

كلية الآداب - جامعة القاهرة